قرأت العدد الماضي من «الآداب»

الياس خوري

قراءة العدد الماضي من مجلة «الآداب»، وهو تقليد للمجلة أراد الصديق سهيل إدريس استعادته وأرادني أنا أن أكتبه، هذه القراءة تتحوّل في الظرف الذي نعيشه في بيروت، إلى مشكلة. فقراءة عدد مضى، تفترض إحساساً بالزمن. أي أنها علاقة بماضٍ قريب، وافتراض ضمني بأن الزمن يتغيّر، وبأن اليوم هو غير الأمس، والمشكلة هي أننا نعيش في واقع مغاير، فلا الزمن هو الزمن، ولا نحن هم نحن، نقرأ الماضي كأننا نقرأ المستقبل، وتنتفي الزمنية عن أفعالنا، لندخل ليس في المطلق، بل في الموت. وهكذا تصبح قدرتنا على القراءة، مرهونة بعلاقتنا بموتنا الذي نعيشه، في مدينة تموت، وبلاد متروكة لقدر الخيانة.

غير أن مجرد صدورنا، ومجرّد أن نكتب، هو فعل ضد الموت: هكذا كنت أعتقد دائماً. كنت مليئاً باليقين أن مقاومة الموت هي في الانغراس في الحياة، وإذا كانت الحياة ممنوعة في بيروت منذ أربعة أشهر (مع صدور العدد تصبح خمسة أشهر، لكن هل تضيف هذه الحقيقة شيئاً؟)، فإن المقاومة هي للخيال، أي للكتابة والقراءة. هكذا للمرة الأولى، منذ بداية هذه الحرب، عام ١٩٧٥، فهمت حكاية أفلاطون عن الكهف والظلال. لأول مرة بدا لي أن الكهف حقيقة، وأن الحياة هي ظلال لحلمنا عنها. واعتراني الخوف، الخوف من أن تكون الحقيقة هي الوهم، وأن تقودنا الكتابة والقراءة، إلى التعوُّد على الموت، بدل مقاومته، وأن تكون الحروف التي تتداعى على ضوء شموع بيروت المحرومة من الكهرباء، هي ظلال لمعرفة فقدناها. وللمرة الأولى أتساءل، هل نقاوم حين نكتب؟ هل نقدم في إصرارنا الجنوني على الاستمرار شيئاً، أم ندافع عن مواقع سقطت، ونحن نخالها موجودة في وهمنا؟.

لن أتابع التساؤلات، فهي ستقودني إلى الاعتذار عن قراءة العدد الماضي، بل سأحاول، قبل تسجيل بعض الملاحظات على العدد، أن أشير إلى مسألتين:

المسألة الأولى، في أن «الآداب» أصبحت المجلة الأدبية الوحيدة التي تصدر في بيروت، بشكل منتظم (!). وهذا له دلالته. كأن سهيل إدريس نَصَّب نفسه مدافعاً أخيراً عن مجد ثقافة لم يعد لها من حصانة المجد سوى ذكرياته، أو كأنه يريد أن يقول إن الثقافة تستطيع أن تستمرّ في كل الظروف، حتى وإن اضطرتها الظروف إلى الكمون، والتراجع، والقبول بالتهميش. «الآداب» وحيدة اليوم في مدينة كانت تصدر جميع المجلات الطليعية الأدبية في العالم العربي. وهذا الاستمرار والعناد، يثيران في نفسي شعوراً متناقضاً من الإعجاب واللامبالاة. إعجاب بالحياة التي تستمر، ولا مبالاة تجاه إصرارها على هذا الاستمرار. وأعتقد أن هذا الشعور المتناقض هو في جوهره، رفض للتحوّل إلى رموز. بيروت بما فيها ومَنْ فيها، تعلم وهي التي أطلقت أو استقبلت جميع رموز الثقافة العربية في الماضي، أنها لا تريد أن تتحول إلى رمز. لم نعد نحب الرموز ولا نريد رمزاً جديداً ونصباً جديداً للموت. لذلك لا نطلب شيئاً، ولذلك فنحن أيضاً لا نبالي من لامبالاة الآخرين بنا.

المسألة الثانية، هي أنني أناقش عدداً صدر في نيسان الماضي، وكان من المفترض أن أناقشه منذ شهرين. لكن الآن تبدَّد، والشهران مرَّا كأنهما لم يمرَّا، والنصوص التي

أمامي تحفل بلازمنية القضايا التي تطرحها. هذا الشعور بلازمنية الزمن هو ما يرعبني، وكنا قد لاحظنا في سيل المجلات «الأكاديمية» التي صدرت في بيروت منذ مطلع الثمانينات هذه اللازمنية، يومها فسَّرنا ذلك الواقع بأنه يعود إلى القمع، أي إلى تحوّل المثقَّف العربي إلى تقنيّ معرفة عند الأنظمة، وخفنا أن تتعمَّم التقنية في المعرفة لتحوّلها إلى غطاء للقمع، ففي هذه البلاد المحكومة بالتخلّف والديكتاتورية، تصبح المعرفة التقنيَّة مجرد حجاب.

اليوم تنتقل اللازمنية إلى الأدب نفسه، ونواجه ونحن نقرأ عدد «الآداب» الماضي بها، ولعل أهمّ نصوص هذا العدد هو المذكرات، ولعل انعدام الجاذبية الذي يلفّنا هنا في بيروت، هو انعكاس لانعدام جاذبية الواقع العربي برمّته.

السيرة الذاتية

أهم نصّ في العدد، هو الفصل الثاني من سيرة سهيل إدريس الذاتية، وقد نشر إدريس الفصل الأول في العدد الأسبق. ما يستلفتنا في هذا النصّ هو عودة إدريس إلى الكتابة الإبداعية. فصاحب ثلاثية «الحي اللاتيني»، الذي ساهم في تشكيل ملامح الرواية العربية الحديثة، يعود في سيرته الذاتية إلى كتابة فن نادر في الثقافة العربية. فالسيرة الذاتية فن شبه غائب، ولا أفهم سبباً لغيابه، خاصة بعد أن استطاع طه حسين في «الأيام» أن يؤسِّس هذا الفن، بوصفه اقتراباً من الوعي، واكتشافاً للذات، وكتابة أدبية فنيّة، تمتاز بقدرتها على الإحاطة بزمنها وتسجيله. إدريس يقترب من سيرته مسلّحا بوعي أن تكون هذه السيرة سجلاً أدبيّاً واجتماعياً، فيها نشمّ رائحة بيروت، التي رسم بعض ملامحها في «الخندق الغميق»، وفيها أيضاً نستعيد زمن البدايات الأدبيّة التي أسَّست للحداثة، وحقَّقت قفزة في المحلات الأدبية العربية. لا أستطيع أن أحلّل سيرة لم أقرأ سوى فصلين منها، لكنني أستطيع أن أستشرف وجهة النصّ الذي يكتب، فإدريس أمام تحدٍّ حقيقيّ، هو يعرف أن عليه أن ينهض بنصٍّ جديد وأن يكون نَصُّهُ شهادة اجتماعية ـ أدبية، وأن يسدّ بعض ثقوب ذاكرتنا، التي مُلِئت بثقوب الهرب من مواجهة الواقع.

الأسئلة القديمة

لست أدري ماذا دفع بأحمد أبو كف إلى طرح هذا النمط من الأسئلة على أدونيس. فمقابلة أبو كف التي أعادت «الآداب» نشرها عن «المصور»، تكشف خللاً عميقاً في الحياة الثقافية العربية. فهي لا تطرح أية قضية أدبية أو شعرية، تحاول أن توجّه اتهامات لأدونيس، بشكلٍ ذكَّرني بأجواء أواخر الستينات، حين كان الشعراء يقفون على شرفة الزمن العربي، بوصفهم شعراء القبيلة.

لقد انهارت الشرفة، ولم تعد «حرب الشعراء» التي كان يشعلها عبد الوهاب البياتي في زواريب الصحافة اللبنانية، تثير فينا غير الشعور بالشفقة والرثاء. ومرة أخرى، تنتقل هذه الحرب إلى مصر، وبدلاً من أن يناقش أدونيس في عمله الشعري، مقترباته الفكرية والنقدية، توجّه إليه اتهامات من نوع «الشعوبية» وما شاكل، وهي اتهامات مضى عليها الزمن. أدونيس والشعراء الآخرون من مؤسسي الحداثة الشعرية العربية، دخلوا في تاريخ الأدب العربي، وصار نقاشهم يتطلب نوعاً آخر من الأسئلة التي تفتح باب التطور والتحوّل في الشعر. صار من المفترض أن تناقش تجربة المؤسّسين على ضوء آفاق التطوّر الشعري الراهن من جهة، وأن تدخل في نصاب الأدب العربي بأسره. أين يقع شعر الحداثة من الشعر العربي، هل يستطيع أن يحاور الشعر في مرحلته الكلاسيكية وأن يجاوره؟ أين هو اليوم من الشعر في العالم، وفي العالم الثالث بوجهٍ خاص؟.

هذه هي الأسئلة التي من المفترض أن تناقش. غير أن الوسط الثقافي العربي، ما يزال كما يبدو، احتفالياً، يحتفي بالقشور وينسى الجوهر.

الصورة والمرآة

يقدِّم الشاعر صلاح ستيتية في مقاله «قراءة عربية لأعمال أوروبية»، رؤية شمولية للثقافة العربية المعاصرة. فالثقافة «لا تستطيع أن تكون بريئة»، وهي بالتالي جزء من جدلية صراع طويل بين ضفتي المتوسط. وقراءة ستيتية الشمولية تحاول أن تلتقط آلية هذه العلاقة المعقَّدة، دون أن تنتقل إلى دراسة الكيفية التي يهاجر فيها النصّ الغربي إلى الثقافة العربية. «فسارتر العربي» على سبيل المثال هو غير «سارتر الفرنسي»، إنه هنا يساهم في صياغة الإيديولوجية القومية، بينما هناك لا علاقة له بالفكر القومي لا من قريب ولا من بعيد، وإليوت المحافظ يستطيع أن يكون هنا مصدر وحي للشعراء اليساريين، وسان جون بيرس، يتحول في ترجمة أدونيس إلى اندراج في البحر اللغوي العربي، والسريالية تتحول في صوفية الشعر الحديث إلى غير السريالية.

شيء كبير يتغيَّر، إنه مزيج من التمرُّد والنضج. لم يستطع النموذج الغربي أن يكون نموذجاً. لقد دخل في سياق المبنى الثقافي العربي، وأعيد تشكيله من جديد. لذلك فالغرب كمرآة لنا، كما اقترح مرة عبد الله العروي، يصبح مسألة إشكالية. إنه مرآة وهناك مرآة أخرى في الوقت نفسه، هي

علاقتنا بثقافتنا، ليس بمعنى تكرارها، بل بمعنى إعادة إنتاجها.

تبقى مسألة أخيرة هي مسألة الرواية العربية في علاقتها بالغرب. أعتقد هنا أن الإشكالية التي يثيرها ستيتية لافتة للنظر وإن كانت غير جديدة، فهو ينطلق من أعمال قليلة، أساسية، من فكرة العودة إلى الوطن. من نبيّ جبران إلى مصطفى سعيد، الطيب الصالح. ومن الحي اللاتيني إلى ألبير قصيري. غير أننا نستطيع أن نرى الغرب في زاوية أخرى من الرواية، في الأشكال أولاً، وفي الوجود المباشر ثانياً، في الشكل الروائي وعلاقته بالشكل الأوروبي من جهة، ثم في محاولات الرواية الجديدة التمرّد على هذا الشكل، كما نستطيع أن نراه في واقعه الداخلي، في «ثلاثية» محفوظ أو في العديد من الأعمال التي تصف الكولونيالية في بنيتها الداخلية، خاصة من خلال شخصية «المثقّف» التي طغت فترة على مجمل الكتابة الروائية، العربية.

القصة والشعر

لن أتوقّف طويلاً عند بقية مواد العدد، رغم أن مقال عبد الرحمٰن طهازي يستوقف، بالأضواء التي يلقيها على تجربة محمود البريكان، ورغم أن بشير الهاشمي في مقاله عن المازني يثير قضية هامة لا تناقش عادة في النقد الأدبي العربي، وهي قضية كانت تستحق من الهاشمي بحثاً أكثر استفاضة وتحليلية.

سوف أتوقف عند القصص لأسأل، أين البحث في القصة التي تُكتب اليوم؟ أتمنى أن لا تكون قصص العدد الماضي معبرة عن تيارات القصة القصيرة العربية، لأنها في مجملها قصص تشبه التمارين وليس التجارب. د. علي حجازي في «القبضة والأرض»، يبقى عند إرهاصات الكتابة حول المقاومة. المقاومة ضد المحتل أنتجت أدباً إشكالياً، من حبيبي إلى كنفاني إلى آخره... هنا، تبقى القصة في حدود التمرين على صياغة موقف وطني دون البحث في أعماق الشخصيات. أما «كلاب» أبو بكر العيادي فتعيدنا إلى الرمزية المباشرة، وتبقى «لوحة» منار فتح الباب محاولة رسم لوحة بتقنيات جديدة، إنها قصّة تستحق أكثر من قراءة.

لعل خالد الخزرجي في قصيدته «بيروت والطوفان»، لا يصف بيروت وحدها، بل يصف هذا التردّد، والدوران الذاتي الذي يجتاح الشعر الحديث:

«أسريت أبحث عن جذور سلالتي
شاخت بي الطرق اقديمة واحتواني
تعب.. وصوّح بي زماني»...

إن التعب، تعب القصيدة من دخول عمود الحداثة وتكراره. أما آن للقصيدة الحديثة أن تكسر قواعد الخمسينات، وتنغرس في هذا البحث عن الحاضر بلغته؟.